الفصل الدراسي الثاني / الصف الحادي عشر/العام الدراسي 2013/2012 م

شرح قصيدة (سفر أيوب)
الشاعر بدر شاكر السيّاب

جو القصيدة :

أصيب الشاعر بمرض السل الرئوي وتفاقم عليه المرض ، فتوجه إلى لندن للعلاج ، وقد نظم هذه الأبيات وهو على سرير المستشفى هناك ، يشكر فيها الباري على نِعمه التي لا تحصى .

وقد اعتاد رواد الشعر الحديث استخدام الرموز ، والقصص الدينية في شعرهم ، والشاعر بدر يستخدم قصة أيوب عليه السلام لما عاناه من مرض وصبر ، وامتحان وبلاء ، وكأن الشاعر يعاني ما عاناه أيوب عليه السلام مع الرضا بما أصابه ويصور ما ابتلي به من مرض ، وغربة في لندن ويحن الى بلدته (جيكور) .

لك الحمد مهما استطال البلاءْ
ومهما استبدَّ الألمْ ،
لك الحمد ، إن الرزايا عطاء
وإن المصيبات بعضُ الكَرَمْ .

– استطال : طال وامتد .. – استبدّ : طغى وظلم وتجبّر .. — الرزايا : مفردها : رزية وهي المصيبة العظيمة .

يشكر الشاعر الله ويحمده مهما امتد البلاء وطال ؛ فالله تعالى هو الذي يحمد على السراء والضراء ؛ لأن المؤمن يرى المصائب امتحاناً وابتلاءً من الله تعالى ..

ألم تُعطني أنت هذا الظلامْ ؟
وأعطيتني أنت هذا السَّحَرْ ؟
فهل تشكر الأرضُ قَطْرَ المطر ؟
وتغضبُ إن لم يَجُدْها الغمام ؟

– السحر : الوقت ما قبل طلوع الفجر . قطر المطر : حبات المطر . الغمام : الغيوم والسحب .

يسائل الشاعر ربه ويحاوره باستخدام الأسلوب الإنشائي (أسلوب الاستفهام الذي يفيد التقرير) ، فيسأل الشاعر ربه سؤال العارف المقرّ بنعمه ، الصابر على بلائه ، أليس مرضي بإرادتك ؟ والجواب : بلى . إذاً فهو نعمة كبيرة وهدية ثمينة تماماً ، كما كانت الصحة والقوة التي منحتني إياها في شبابي وقبل ابتلائي قبل المرض .

ثم يتساءل الشاعر هل تشكر الأرض قطرات المطر التي تسقط من الغيوم ؟ وهل تغضب حين لا تجد الغيوم التي تسقط الأمطار ؟ إذا كانت الأرض ترضى بقدر الله ، فالأحرى بالإنسان أن يكون حامداً شاكراً في اليسر والعسر ، وفي الصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال . وهذان البيتان يدلان على التأمل أو ما يعرف بالشعر التأملي .

شهورٌ طوالٌ وهذي الجراحْ
تمزّق جَنبيَّ مثلَ المُدى
ولا يهدأ الداءُ عند الصباح
ولا يمسح اللَّيلُ أوجاعه بالردى .

– شهورٌ طوالٌ : مدة المرض مدة طويلة . المُدى : مفردها مُدية : وهي السكين . الردى : الموت .

يقول الشاعر : إنّ المرض يلازمه لشهور طويلة ، ويشعر بألم المرض كالسكين التي تقطع أعضاء جسمه ، فنرى هنا شدة الألم الذي ألمّ بالشاعر . فالزمن والمرض يطولان ، والألم والوجع يزدادان ، والمرض لا يهدأ مع ظهور الصباح ، فالصباح عند الشاعر أمل للتجدد ولكنه يتزامن مع المرض ، وأمّا الليل فلا يزيل أوجاعه بالموت .

ولكنَّ أيُّوبَ إن صاحَ صاحْ :
" لك الحمدُ ، إن الرزايا ندى
وإن الجراحَ هدايا الحبيبْ
أضمُّ إلى الصَّدر باقاتِها !"
هداياكَ في خافقي لا تغيب
هداياك مقبولةٌ . هاتِها ! "
وأهتف بالعائدينْ :
" ألا فانظروا واحسدوني ، فهذي هدايا حبيبي .

(عندما نرى علامتي تنصيص فالكلام بينهما يكون اقتباساً – مقتبس من سيدنا أيوب)

– الندى : الكرم ، أو الندى أي قطرات الماء التي نراها في الصباح. باقاتها : مفردها باقة وهي ضمة من الورود . خافقي : الخافق هو القلب

الشاعر يحمد الله ويجعل المصائب هينة بل محبوبة عنده ، فهي الندى ، وأما الجراح والمعاناة فهي الهدايا المقدمة من الحبيب (أي الله تعالى) فيضمها إلى صدره ، ويقول هذه المصائب والجراح والآلام مقبولة ، ويأخذها لأنها من الحبيب ، فهنا نرى الرضا بقضاء الله وقدره وقوه إيمانه وتحمله للمرض والمصائب . ويشد الشاعر جراحه ويقربها منه دلالةً على استقرارها واستمرارها معه ، ويخاطب ويقول للعائدين (الذين يزورون المريض) : انظروا إليّ واحسدوني ، فهذه الجراح من الله ، وأنا سعيد بها .

الشاعر في ظرف يعيش مطلق الإيمان فيه ، والحسد هنا ليس بقصد تغير الحال ، ولكن لتأكيد تمام رضاه بقضاء الله ، وسعادته به ، فهو في نعمة يحسد عليها . (إنه شعور لا يعرفه إلا المريض الذي يواجه الخطر وهو متمتع بتمام إيمانه) .

وإن مسَّت النارُ حُرَّ الجبين

توهَّمْتُها قُبلةً منكَ مجبولةً من لهيبِ .

جميلٌ هو السُّهدُ أرعى سماكَ

بعينيَّ حتى تغيبَ النجومْ

ويلمسَ شبَّاكَ داري سناكْ

– توهَّمْتُها : حسبتها وظننتها . السُّهدُ : السهر والقلق والأرق . سناك : ضوؤك وجمالك .

يقول الشاعر : إنه إذا أصابتني الحمى وارتفعت درجة حرارة جسمي ، فأحس بها كأنها نار على جبيني ، ولكني أتوهم المرض قبلة على جبيني من الله ، مأخوذة ومطبوعة من لهيب ونار لشده الحرارة .

ويستمتع الشاعر بالأرق والقلق الذي يصيبه من جراء المرض ، فيراقب السماء ويرعاها وينظر إليها ويتفكر فيها حتى ترحل النجوم ويطلع الفجر ويظهر الضوء على شباك غرفته في المستشفى .

جميلٌ هو الليل : أصداء بوم

وأبواقُ سيارةٍ من بعيد

وآهاتُ مرضى ، وأمّ تُعيدْ

أساطيرَ آبائها للوليدْ .

وغاباتُ ليل السُّهادِ ، الغيومْ

تحجِّبُ وَجْهَ السماءْ

وتجلوه تحت القمر .

– أصداء بوم : أصداء مفردها : صدى وهو رجع الصوت ، صوت البوم (رمز الشؤم عند العرب) .

ليل الشاعر مختلف عن بقية الليالي التي تمر على الناس ، لأن الليل عنده ساكن يمكنه أن يسمع أدق الأصوات كصوت صدى البوم وأبواق السيارات – حتى وإن كانت بعيدة . كما أنه يسمع آهات المرضى في المستشفى من شدة الألم ، ويسمع الأم التي تحكي لأبنائها قصص آبائها . (فهو هنا ما بين السمع الحقيقي واستعادة الذكريات) . أما غابات الليل القلِق ، والذي يعاني من الأرق فإن الغيوم تخبئ السماء وتضعها تحت القمر – أي وراء القمر –

يوجد هنا اقتباس من سيدنا أيوب .

وإن صاح أيُّوبُ كان النداءْ :

" لك الحمد يا رامياً بالقَدَرْ

ويا كاتباً ، بَعْدَ ذاكَ ، الشَّفاء ! "

– يكرر ويكرر الحمد والشكر لله على النعم وينادي يا الله يا موزع الأقدار ويا كاتباً بعد هذا كله الشفاء ، فنرى الثقة والأمل بالشفاء لا يفارق الشاعر من أول القصيدة إلى آخرها ، والاقتباس من كلام سيدنا أيوب عليه السلام .